ابن رواحة.. لا يحيف عليهم
وهم الأعداء الألدّاء

من سمات المنهج القرآني في تبصير المؤمنين بحقيقة من يواجهونهم من أهل الباطل، والكشف عما هم عليه من خلائق غايةٍ في السوء، لها طابعها المتأصل في النفوس.. أنه لا يقتصر على تبيان ذلك، والتنديد بما يحمل من المساءة، وتبييت الأذى للحق وأهله، ولكنه ينتقل إلى ما يجب أن يكون عليه الفرد والمجتمع، من حرب على تلك الخلائق التي طبعت بميسم الخيانة والعدوان على الحق، وتقعيد القواعد التي ينبغي أن تحكم تصرفات المسلمين، وتربيتهم على أن يكونوا على المستوى اللائق الذي هو على النقيض مما عليه أولئك الأعداء وفي مقدمتهم الكفرة من اليهود وذيولهم.

ومن النماذج التطبيقية لهذه الإشراقة في المنهج المبارك المومى إليه، ما حملت إلينا الآيات في سورة آل عمران، بعد التنديد بما عليه اليهود من الخيانة على ساحة العقيدة، ثم التنديد بما عليه فريق منهم من الخيانة على ساحة التعامل المالي مع المسلمين، وكونهم يستبيحون عدم أداء حقوقهم المالية أو التباطؤ الشديد المزري فيه، بحجة أنهم – لمقامهم المرموق عند الله – أباح لهم ذلك؛ وعلى هذا: فليس عليهم في الأميين من سبيل. ما حملت إلينا الآيات من قوله تبارك وتعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾**﴾.

إنها قاعدة كلية في الدعوة إلى الوفاء بعهد الله، – كما سلفت الإشارة العابرة من قبل – والعمل على تقواه – جل شأنه – في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأن من وفق لفعل ذلك، حظي بالخير العظيم، والعطاء الجزيل، وهومحبة الله تبارك وتعالى، لأن الله يحب المتقين.

وما من ريب في أن تقرير هذه القاعدة النورانية في أعقاب الإخبار عن اجتراح اليهود خيانة الأمانة مع المسلمين، فيه ما فيه من استنكار ذلك السلوك المشين، وتوجيه المسلمين إلى ما هو الحق، والوفاء، وصدق التعامل مع الآخرين وذلك من صفات المتقين الذين يحبهم الله ويحبونه.. وأين هذا من صنيع اليهود؟

ومن الأمانة في متابعة الرحلة مع الحقيقة، أن ما يجب أن يدين به المنصفون وأهل الفكر النقي الذي لم تثقله رواسب الكره للإسلام والمسلمين، هو الاعتراف بأن ما قادت إليه تلك القاعدة الميمونة من الدعوة إلى الوفاء بالعهد، وتقوى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، وجرى التوجيه إليه في كثير من نصوص الكتاب والسنة، قدجرى تطبيقه عملياً في حياة المسلمين خلافاً لما تمرّغ فيه اليهود من العدوان على الحقوق والافتراء على الله في تسويغ هذا العدوان؛ فالأمانات في منهج المسلمين مؤداة، والحقوق مصونة، وغير جائز أكل أموال الناس بالباطل كائنين من كانوا.

وذلك ما قرره حبر الأمة عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – كما أسلفنا، جواباً للسائل الذي سأله عن حيازة شيء من المال يسير ليس له،

إذ سأله عن أخذ دجاجة أو شاة من أموال الذميين في الغزو!! قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنه –: «إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم».

وهكذا: فإن على المسلمين أن يسلكوا – حتى مع أعدائهم – السلوك القائم على أداء الأمانة، والوفاء بعهد الله، وصيانة الحقوق مادامت الواجبات مؤدَّاة، وذلك ما انتهجوه وسلكوه والحمد لله، وهذا لا يتعارض – ألبتة – مع اليقظة والحذر، وإعداد القوة المستطاعة، فلكل قضية موقعها المتميِّز ومجالها الذي يجب أن توضع فيه.

وما من ريب في أن البرهان على صدق الوجهة ما يكون عند التطبيق العملي، وإلا ظلت المبادئ شعارات فارغة ودعوى بلا دليل. من هنا كان لموقف ابن عباس – رضي الله عنهما – قيمته الكبيرة في البنيان الحضاري لأمتنا إذ إنه موقف يشير إلى ربانية هذه الحضارة وتكاملها في ظل دعوة الله.

وهذا الموقف نفسه يبدو امتداداً لما وجه إليه وفعله الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، في ضوء ما دعا إليه القرآن الكريم.

جاء في مسند الإمام أحمد – رحمه الله –: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن سابق قال: حدثنا إبراهيم بن طَهمان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أنه قال: «أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرّهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبدَ الله بن رواحة فخرصها عليهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود:

أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألفَ وَسْقٍ من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، قد أخذنا قال: فاخرجوا عنا».

وبمثل هذه الرواية تقريباً ما جاء عند الدار قطني في سننه، إذ روى

بسنده عن أبي الزبير عن جابر – رضي الله عنه – قال: أفاء الله خيبر على رسوله، فأقرهم رسول الله ﷺ وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة، فخرصها عليهم، ثم قال: يا معشر يهود أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذناها، قال: اخرجوا عنا».

ولقد أورد الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد» رواية المسند ثم قال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

جاء في «المصباح المنير» للفيومي: خرصت النخل خرصاً من باب قتل؛ حزرت تمْره.

أما الوَسق: فهو حمل بعير.

فعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه– مؤتمن من قبل رسول الله ﷺ على حزر تمر النخيل من خيبر وتقديره، فخرص عشرين ألف وسق من تمر.

ولكن: هل كون المسلمين في موقع القوة والغلبة، وكون اليهود في موقع الهزيمة والقهر، تسببا في شيء من الحيف والجور على اليهود الذين لم يتركوا مساءة إلا ارتكبوها مع المسلمين؟ الحق – كما هو الواقع الذي اعترفوا به هم أنفسهم – أن شيئاً من ذلك لم يكن؛ لأن ابن رواحة لا يحيد عن طريق الحق، سواء أكان من يتعامل معه أخاً حميماً، أم عدواً لدوداً، لذا رأيتَ أنه مع إفصاحه عن دخيلة نفسه بأن اليهود أبغض خلق الله إليه، لأنهم قتلة الأنبياء، والكذبة المفترون على الله... ولكن معاذ الله أن يحمله بغضه إياهم على الحيف عليهم، وهو مسلم منهجه أداء الأمانة والوفاء بعهد الله، وإعطاء كل ذي حق حقه كائناً من كان صاحب هذا الحق، لذلك قال لهم: «وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق تمر فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي» ولما تبين لهم أن خرص عبد الله كان مثال العدل والنصفة رضوا كل الرضى وقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، أجل بالحق قامت السماوات والأرض.

هؤلاء هم اليهود الذين عاملناهم بالأمانة والوفاء، وعاملونا – وما زالوا – بالخيانة والغدر، وأسوأ ما في الأمر، دعواهم أن الله أباح لهم أكل أموالنا وسلوك سبيل الخيانة والغدر معنا...

فهل نستذكر هذه الحقيقة وأمثالها في مواجهة تتطلب – بعد العقيدة – الاقتناع الفكري العميق، والعمل على الأخذ بأسباب القوة من أطرافها في كل الميادين – ومنها سلامة التصوُّر وعدم الغفلة عن الحقائق ودلالة الوقائع في شأنهم...؟ اللهم أنت ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين..

أقرُّكم ما أقرَّكم الله .. ثم أجلاَهم عمر

لم يكن بدعاً من القول ولا جنوحاً إلى الرغبة في التمييز دون دليل، أن نشير إلى أن الوقائع بدءاً من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت دليلاً ناطقاً على أن منهج المسلمين في السلوك يتميز بالحرص على أداء الأمانات لأهلها، والوفاء بالحقوق دونما تمييز بين قريب وبعيد، لما أن ذلك من الوفاء بعهد الله وتقواه فيما أمر وفيما نهى، والله سبحانه يحب الأوفياء الأتقياء الأنقياء ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

أقول هذا والحديث موصول بما دل عليه الكتاب الكريم؛ من حرص بالغ الشدة في المال عند فريق من اليهود، حملهم على استباحة أكل أموال المسلمين بالباطل، متذرعين بتأويلات عنصرية شيطانية وافتراء للكذب على الله تعالى، بأنه أباح لهم أكل أموال المسلمين فيما أنزل عليهم من كتاب، تعالى – جل شأنه – عن ذلك علواً كبيراً.

والناظر في كتب السنة – فضلاً عن كتب التاريخ بشكل عام – يقع على مالا يكاد يحصى من النماذج التي كان المسلمون، في تعاملهم مع الأعداء وفي مقدمتهم اليهود والنصارى، على الصراط السوي أداءً للأمانة ورعاية لحقوق الآخرين، دونما تأثر بأنهم هم الأقوياء وأعداؤهم الضعفاء؛ فلا حيف على العدو لأنه عدو، ولا محاباة للأخ – على حساب الحق – لأنه أخ،فالأمانة مؤدَّاة للبر والفاجر، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام، والحقوق مصونة لأصحابها دون الخضوع لأي اعتبار آخر ماداموا

يؤدون ما عليهم من واجبات، وقد أوردت كلام ابن عباس – رضي الله عنه – في ذلك.

ونعيد إلى الأذهان ما روى الإمام أحمد في مسنده والدارقطني في سننه، من موقف عبد الله بن رواحة من اليهود وقد ائتمنه الرسول على خرص النخيل في خيبر، وكيف أنه لم يمل عن الصراط العادل قيد أنملة، وأن بغضه الشديد لهم لم يحمله على شيء من الحيف عليهم – وهم على ما هم عليه من العتو والضلال، وتبييت المكر والشر للمسلمين – سيما أنهم كانوا في مركز الضعف والهزيمة بينما كان المسلمون في مركز القوة والانتصار. فعن جابر – رضي الله عنه – قال: (أفاء الله خيبر على رسوله فأقرهم رسول الله ﷺ، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم ثم قال: يا معشر يهود أنتم أبغض الخلق إليّ؛ قتلتم الأنبياء، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم. فقد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، قالوا: بهذا قامت السماوات، قد أخذناها، قال: فاخرجوا عنا).

قدمنا أن الخرص هو الحزر، وأن الوَسق حِملُ بعير.

ولقد كان النبي ﷺ يبعث بعبد الله بن رواحة في الوقت المناسب للخرص حرصاً على سلامة التقدير، وصيانة لحق كل من المسلمين واليهود على السواء، وذلك على الصورة التي اتفق عليها بعد فتح خيبر.

روى أبو داود في سننه والدار قطني في السنن أيضاً وغيرهما بالسند إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت – وهي تذكر شأن

خيبر – (كان النبي ﷺ يبعث بابن رواحة إلى اليهود، فيخرص النخل حين تطيب أول الثَّمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يُخيِّر يهود يأخذونها بذلك الخرص، أو يدفعونه إليهم بذلك الخرص، وإنما كان أمر رسول الله ﷺ بالخرص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتفرَّق) قال الدار قطني: رواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهريّ عن ابن المسيَّب عن أبي هريرة، وأرسله مالك ومَعْمَر وعقيل عن الزهريّ عن سعيد بن المسيّب عن النبي ﷺ مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: صالح بن أبي الأخضر: ضعيف وقد وثّق.

ويبدو أن اليهود – وهم قانعون بأن خرص عبد لله بن رواحة فيه الدقة والعدل ولا يحمل أثارة من حيف – أظهروا عدم الرضى أول الأمر، وشكوه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن عبد الله – وقد كان واثقاً كل الوثوق مما صنع – بيّن لرسول الله ﷺ وجه الصواب في صنيعه، وأنه أنصفهم ولم يظلمهم شيئاً، عندها رضيت اليهود وقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.

روى الهيثمي في كتابه « مجمع الزوائد » عن أبي هريرة أنه قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر وعد اليهود أن يعطيهم نصف الثمرة على أن يعمروها، ثم أُقرّكُم ما أَقرّكم الله، فكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة يخرُصها، ثم يخبرهم أن يأخذوا أو يتركوها، وأن اليهود أتوا رسول الله في بعض المرات فاشتكوا إليه غلاء خرصه، فدعا عبد الله بن رواحة فذكر له ما ذكروا، فقال عبد الله: هو ما عندي يا رسول الله، إن شاؤوا أخذوها وإن شاؤوا تركوها، وإن تركوها أخذناها، فرضيت

اليهود، قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، ثم إن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان؛ فلما نُميَ ذلك إلى عمر، أرسل إلى يهود خيبر فقال: «إن رسول الله ﷺ قد ملككم هذه الأموال، وشرط لكم أن يقركم ما أقركم الله، فقد أذن الله في إجلائكم؛ فأجلى عمر كل يهودي ونصراني عن أرض الحجاز، ثم قسمها بين أهل المدينة». رواه البزار وفيه صالح بن الأخضر ذكرنا من قريب قول الهيثمي بأنه ضعيف قد وثّق.

ذلكم موقف المسلمين، طاعةً لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام.. وهو موقف لا يخفى إشراقه وسموُّه؛ لأنه من الحق وإليه، وخصوصاً إذا قورن بموقف أعداء الله يهود.. وكل هذا وما كان على شاكلته، من معاملة اليهود بأخلاق الإسلام لم يُجْدِ مع المغضوب عليهم فتيلاً... وإذا قطعنا شوطاً أطول نحو الواقع، في ضوء ما حمل القرآن الكريم والسنة النبوية من حقائق، وجدنا أن اللغة الجدية مع هؤلاء الأناسي: أن يعمل المسلمون على أن يكون لهم وجود ذاتي في ظل عقيدة التوحيد التي تفجِّر الطاقات وتحرك العزائم، وأن لا يبخل هؤلاء المسلمون بشيء من القوة المستطاعة، على أي ساحة وفي كل ميدان من ميادين الصراع، بدءاً بالعلم، بعد الإيمان الخالص وصدق التوكل، ومروراً بكل ما هو لازم لتحقيق الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، والفريضة الماضية إلى يوم القيامة، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

[العنكبوت: ٦٩]

والله أعلم بأعدائكم.. خلائقهم وما يفترون

الناظر في آيات الكتاب العزيز، ووقائع السنة النبوة والسيرة المطهرة حيث التعامل مع اليهود في بعض المجالات، يجد أن تحريف الكلم عن مواضعه، خصلة متأصلة في نفوس هؤلاء اليهود – كما أخبر عنهم القرآن – فلا أيسر عليهم، من أن يعبثوا بنصوص التوراة، فيبدلوها، أو يحرفوا الكلم عن مواضعه، فيتأولوه على غير وجهه، واضعين إياه على غير المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ، ويؤيده الدليل. والمعنى الذي يرمون إليه بعد التحريف وسيّء التأويل، هو المعنى الذي يوافق أهواءهم الضالة، ونزعاتهم التي لا تمتُّ إلى دعوى التدين بصلة.

ففي سورة البقرة – على سبيل المثال – نقع على ما يشبه التيئيس للمؤمنين، من أن يطمعوا في انقياد أولئك المغضوب عليهم بالإيمان والطاعة، وهم أحفاد أولئك الذين كان فريق منهم شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوا، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك أشد القسوة – والسائرون على نهجهم – وقد كان فريق منهم – يعني آباء اليهود الذين هم بين ظهرانيهم كما دلت الآيات –: يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه بأن يتأولوه على غير تأويله، متنطعين مخالفين دلالته الظاهرة، كل ذلك ليكون – كما شاء لهم هواهم ووفق ما تسوّل لهم أنفسهم –، بعيداً عن دلالة ذلك الكلام العلوي، ومعناه الحقيقي.. وقد فعلوا ذلك من بعد ما فهموه على الجلية وأحاطوا به، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا

إليه من تحريفه وتأويله، ذلكم قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥] وقد جرّهم ذلك إلى اتخاذ النفاق سبيلاً في علاقتهم بأهل الإيمان، دل على ذلك قول الله تعالى في الآية التالية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٦ - ٧٧] لقد كذبوا على الله، وحرفوا كلامه - سبحانه - عن مواضعه، وبخاصة ما يتعلق منه بوجوب الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، أولا يعلمون أن الله يعلم ما أسروا من كفرهم به ﷺ وتكذيبهم بما جاء به من الحق،وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة على صورة لا تحتمل اللبس أو الإبهام؟ إنه - وهو العليم الخبير - يعلم ما يسرون وما يعلنون حين يقولون لأصحاب محمد ﷺ إذا لقوهم: آمنا بمحمد وبما جاء به وصدقناه، ويبطنون نقيض ذلك من الكفر والتكذيب. كذا روي عن أبي العالية والربيع وقتادة... إنه العبث والاستهتار، والظهور بوجهين، حتى في أمور العقيدة التي جاء ذكرها في التوراة والإنجيل والقرآن!!

وهكذا كان لتحريف اليهود الكلم عن مواضعه، وتأويله على غير وجهه الذي يدل عليه، أثره في توجيه العلاقة بينهم وبين المسلمين؛ لأن سبيل الاطمئنان إليهم منتف على هذه الساحة، وأنّى للطمأنينة أن تكون، وهم يحرفون نصوص التوراة الدالة بصريح العبارة - كما قلنا - على بعثة محمد ﷺ والناطقة بصفاته صلوات الله وسلامه عليه - وهذا

قليل من كثير – مما حرفوا وبدّلوا، والأدهى من ذلك: أنهم يفعلون ما يفعلون عن عمد وإصرار، عالمين أن ما يقدمون عليه من الجراءة على كلام الله ضلال مبين.

ومما يؤكد هذا العبث العابث، والإصرار على تنزيل كلام الله تعالى غير منازله، وتفسيره حسبما تمليه الأهواء، لا وفق مراد الله عز وجل، وأن ذلك خصلة عميقة الجذور في نفوس من يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، ما جاء في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء.. من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾** ﴾ [النساء: ٤٦].

وعلى محور الهداية القرآنية في تنبيه المسلمين – وهم يخوضون معركة الوجود الذاتي – على خصال اليهود وطبيعة تحركهم في مواجهة الحق وأهله حسداً وبغياً، وما يجب من وضع ذلك أبداً في الحسبان دونما تفريق بين حالات السلم والحرب، بحيث لا يغترون بزخرف القول، ولا يغفلون عن أساليب الخداع والمكر.. على هذا المحور رأينا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾** ﴾ [البقرة: ٧٥] يخاطب المؤمنون بما يشبه التيئيس – كما أسلفنا – من إيمان اليهود المعاصرين لهم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، لما أنهم أحفاد أولئك المحرفين المتأولين كلام الله على غير تأويله الراضون بصنيعهم، الناسجون على منوالهم.

ونرى هنا في سورة النساء أن الكلام على تحريف الكلام عن مواضعه عند اليهود، وسوء أدبهم البالغ مع النبي عليه الصلاة والسلام، قد سُبق بما يدل على أن صنيعهم هذا: عنوان العداء لمحمد ﷺ ولما جاء به معتقَداً وسلوكاً؛ فمن ناحية المعتقد: حرّفوا وتأولوا أسوأ التأويل، وعندهم النصوص الصريحة، بصفة محمد عليه الصلاة والسلام، والدعوة إلى الإيمان به، ومن ناحية السلوك كان من سوء أدبهم قولهم: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين؛ فقبل قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ...﴾ الآية. يطالعنا السياق المعبِّر الدال على ما نقول – والله أعلم – بقول الله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

[النساء: ٤٤ – ٤٥].

ونتابع الخطى مع هذه القضية، التي تحمل أهميتها على ساحة الفكر من حيث الاستجلاء الموضوعي المتعمق لحقيقة ما تنطوي عليه نفوس أعداء الله، وما تكنه صدورهم كيما يكون المسلمون – وهم يعيشون واقعاً مخزياً لا يغبطون عليه – قادرين على تخطي الصعاب، وترشيد المنطلقات، والإفادة من وقائع التاريخ لعلهم يظفرون بتبديل المواقع، وتحويل ميزان القوى إلى صالحهم في مواجهة اليهود.. نتابع الخطى مع هذه الحقيقة، لنرى في سورة المائدة ما يدل على أن تحريف الكلم عن مواضعه، ليس أمراً عارضاً في حياة اليهود ولكنه جزء لا ينفصم من كيانهم على صعيد الفكر والسلوك، ذلكم ما جاء في الآية الثالثة عشرة

من السورة المشار إليها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

فبسبب من خيانتهم الأمانة ونقضهم المواثيق والعهود عاقبهم الله بأن لعنهم وطردهم من رحمته،وجعل قلوبهم قاسية فتراهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ومظاهر خيانتهم لا تنحسر، فالرسول ﷺ لا يزال يطّلع على العديد من وقائع مكرهم وغدرهم – إلا قليلاً منهم – قاتلهم الله.

النتائج على نسب واضح من المقدمات ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾. بدؤوا بالخيانة ونقض العهود والمواثيق فكانت العقوبة المناسبة مع تلك الجريمة النكراء ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، وقسوة القلب هذه، يالها من عقوبة اقترنت بالطرد من رحمة الله، فأصبح التحريف وسوء التأويل عند اليهود خصلة مرتبطة تمام الارتباط، بتلكم القسوة الملعونِ من اتصف بها والعياذ بالله.

إن الذي يعلنه اليهود اليوم، من دعوى ارتباطهم بالتوراة، وأنهم يأتون ما يأتون وفق نصوصها وتعاليمها، والتوراة التي أنزلها الله على موسى منهم ومن فعالهم براء.. إن الذي يعلنونه اليوم، يؤكد أكثر من أي وقت مضى، ضرورة أن يكون المسلمون – وهم على خط المواجهة الصعبة مع اليهود – أكثر وعياً لحقائق الكتاب والسنة في شأنهم، وأكثر حرصاً

على الإفادة من تلك الحقائق ووضعها موضعها في ميادين الفكر والمعاناة، التي لا تقتصر على ميدان من الميادين، فحقائق الكتاب والسنة، ليست صفحات من التاريخ تطوىٰ بعد أن تقرأ لمجرد الاطلاع، ولكنها أمانة ومسؤولية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ماضٍ سيئ.. يؤكده حاضر أسوأ

من إعجاز القرآن الكريم أنك ترى– وأنت تعيش واقع اليهود مع أمتنا – كأن الآيات التي أوضحت الرؤية في شأنهم من كل الوجوه، تتنزل اليوم غضة طرية، لتضعَ أيدي المسلمين على مكمن الداء، وتهديَهم سبيل الوعي لما يجري، والتيقظِ لما يجب على ساحة المواجهة في هذا العصر الذي يحمل الكثير من التبدل في القيم، والاضطراب في المعايير.

أوَ ليسوا يحاربون اليوم عند الحاجة: بسلاح أنهم على الهدى التوراتي، يتبعون تعاليم كتابهم حذو القذّة بالقذّة؟ فإذا وضعت ذلك، ووضعت معه ما كشفت عنه الآي في عدد من السور المدنية؛ من كونهم يحرفون الكلم عن مواضعه بجراءة لا مثيل لها، في الافتراء على الله والجراءة في الكذب عليه... إذا فعلت ذلك: أدركت – ولو من جانب واحد – لوناً من ألوان الإعجاز، وازددت يقيناً، بأن هذا الكتاب كلامُ الله الحكيم الخبير الخالق العليم بما تنطوي عليه نفوس هذا الصنف من الخلق، الأمر الذي يدل على أن ما يُرى من الانحراف المتأصل في السلوك: مردُّه إلى ما تنطوي عليه تلك النفوس، وما يغشى القلوب من الظلمات!!

ولقد رأينا أنه قد صحب الكشفَ عن تحريفهم الكلام عن مواضعه، وتأويله تأويلاً يتناقض مع المعنى المراد لله تعالى حسب دلالة الألفاظ، وسبب النزول والقرائن معاً إلى ذلك.. صحب هذا الكشف بيان أنهم يأتون ما يأتون من هذا الفجور الفكري؛ جراءة على الله وافتراء للكذب

عليه سبحانه عن عمد وإصرار بالغَين، وهم على علم بأن ما يقدمون عليه من سوء الأدب الذي لا حدّ له ضلال مبين. يدرك ذلك بكل جلاء من ينظر نظرة متدبرة في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وكونهم يتحركون يومذاك من موقع الضعف – على النقيض من هذه الأيام السود – لجؤوا إلى النفاق ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا...﴾ الآية. والدرس الذي كان فيه تأنيبهم وفضح مخازيهم، – ولا يصح أن نغفل عنه اليوم – ما جاء في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧].

وقد سبقت هذه الآيات الثلاث في سورة البقرة، بآية جاءت في أعقاب الكلام على تعنت اليهود وملاحاتهم موسى عليه السلام في شأن البقرة التي أمروا بذبحها من أجل الكشف عن جريمة ارتكبت فيما بينهم، وظهر لهم من آيات الله ما يدل أوضح دلالة على قدرة الله وحكمته، ولكن قست قلوبهم من بعد ذلك أشد قسوة!!

والآية الكريمة هي قول الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

وعلى هذا المحور المضيء من هدي الكتاب في هذه الحقيقة، رأينا ما

جاء في سورة النساء بدءاً من الآية الرابعة والأربعين من قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٦].

أرأيت: هناك في سورة البقرة تيئيس، أو ما يشبه التيئيس، من انقياد أولئك اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام للحق وطاعتهم لأهله، وهم أحفاد أولئك الذين كان يطبع تعاملهم مع الله وكتابه، أنهم جفاة غلاظ الأكباد على قلوبهم أقفالها، فقد رأوا ما رأوا من الآيات الدالة على قدرة الله وحكمته، ثم قست قلوبهم أشد ما تكون القسوة، وتراهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما فهموه وأدركوه، وهم يعلمون أنهم على ضلال في صنيعهم الزائف المنحرف... والطينة واحدة، وما يزال النهج يزداد عتواً وانحرافاً! فكيف يطمئن إلى صنيعهم المؤمنون، ويطمعون في انقيادهم للحق؟

وهنا في سورة النساء: كشفٌ عن أنهم من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، وذلك على صعيد العقيدة والسلوك جميعاً، ومن المؤشرات على هذه الساحة: تحريفهم الكلم عن مواضعه، وسوء أدبهم المخزي مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو فعلوا غير ذلك، لكان خيراً لهم وأقوم

في دينهم ودنياهم، ولكنهم استحقوا لعنة الله وغضبه، فهم ناقضون للعهد – كما دلت النصوص والوقائع – خائنون للأمانة، كافرون بما جاءتهم به رسلهم من عند الله ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. أليس إدراك هذه الحقائق اليوم إدراكاً ينتفع به على صعيد الواقع، ضرورة ملحة بعد أن تعقَّدت الأمور، وبدأ اليهود يتكلمون ويحاورون من موقع القوة والتعنت الذي لا مثيل له.

أما في سورة المائدة فطالعتنا الآية الثالثة عشرة – والكلام على اليهود – بقول الله جلَّت حكمته: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

فتحريف الكلم عن مواضعه، كان امتداداً لتلك العقوبة المهلكة، وهي قسوة القلب التي كانت قرينة اللعن وهو الطرد من رحمة الله تعالى.... كل هذا يدل – كما أسلفنا – على أن ما يصنعونه اليوم وصنعوه من قبل: شنشنة نعرفها من أخزم. والمهم أن يكون لنا الوجود الذاتي الواعي المستنير بالإيمان.

ومع خطوة أخرى في رحاب سورة المائدة، نقرأ بدءاً من الآية الأربعين ما يكشف عن أن تحريف الكلم عن مواضعه أصبح منهجاً هو الأصل في تعاملهم مع كلام الله عز وجل، وإذا حصل غير ذلك – وهو غير حاصل – فهو شيء على غير بابه، ولذلك انضمت هذه الخصلة الذميمة إلى

مجموعة أخرى من الخصال التي يجمعها السوء في المعتقد والسلوك، وكل ذلك باسم الدين؛ كذباً وافتراءً على رب العالمين. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤١ – ٤٣].

هكذا يذكر تحريف اليهود الكلم من بعد مواضعه – وكأن الآيات تنزل اليوم – في عداد تلك المجموعة من الخصال الذميمة، التي بدت آثارها في الماضي، وتبدو على صعيد الواقع اليوم، واضحة في سلوكهم وتكييف علاقاتهم بالآخرين، سماعون للكذب – بصيغة المبالغة – سماعون لقوم آخرين لم يأتوك – هم أهل خيبر في واقعة سوف نعرض للحديث عنها إن شاء الله – يحرفون الكلم من بعد مواضعه، سماعون للكذب أكالون للسحت، لا يرضون بحكم الله الذي جاء النص عليه في التوراة... وما أشبه الليلة بالبارحة! ولكن مع مزيد من الوقائع المؤكدة بالغ التأكيد!!

﴿ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ألقينا عصا التسيار من قريب عند آيات مباركات من سورة المائدة، توحي بأسلوبها المعجز – والقرآن كلُّه معجز – أن من معالم الهداية في كلام الله تعالى، التوجيه إلى تدبر الوقائع وإرعاء السمع إلى ما يكشف عنه من ارتباط سلوك اليهود بنوازع الانحراف المتأصلة في نفوسهم، ومن ذلك جراءتهم على الله وكتابه، بتحريف الكلم عن مواضعه، وتوجيه الكلام توجيهاً يخضع للتأويل الذي يرون أنه يضمن لهم ما يبيتون من الأذى. وما يزعمون من أن لهم أفضلية تبيح لهم السيطرة وأكل أموال أمتنا بالباطل، إلى جانب ما يجدُّ من تسويفات تحقق أغراضاً طارئة، رأينا نماذج كثيرة منها عبر تاريخنا الطويل معهم.

لذا بات من إعجاز القرآن والدلالة على أنه كلام الله، ما يرى من الدخول إلى أعماق الأعماق في نفوسهم، والكشف حتى عن الخطرات من المنطلقات التي توجه سلوكهم، وسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. ولنقرأ لمزيد من البيان ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ**

فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

[المائدة: ٤١ – ٤٣].

لقد افتتحت الآية الأولى، بما يدل على القنوات المتصلة أبداً بين المنافقين واليهود، يا أيها الرسول لا يحزنك صنع أولئك النفر من الناس الذين يقعون في الكفر بسرعة، فيخرجون عن طاعة الله ورسوله، إذ يظهرون هذا الكفر إذا وجدوا فرصةً، مقدمين آراءهم وأهواءهم، على شريعة الله عزوجل، وهديه سبحانه، بينما تراهم يخفونه ويتظاهرون بالإيمان إذا لم تواتهم الفرصة و «من» في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ للبيان. وتلكم هي صفة المنافقين، يقولون: آمنا بألسنتهم، وقلوبهم خراب مقفلة ما ذاقت طعم الإيمان.

الخطاب للرسول ﷺ: لا يحزنك صنيع الذين يسارعون في الكفر من المنافقين وإخوانهم من اليهود، إذ يجمع شتات هؤلاء وأولئك عداؤهم المجنّح للإسلام، والذين هادوا سمّاعون للكذب الذي أقرته أحبارهم سماع قبول، فهم مستجيبون له متأثرون به تمام التأثر... دلَّ على ذلك صيغة المبالغة إذ لم يقل الله جل شأنه «سامعون للكذب» بل قال: «سماعون للكذب» وهم أيضاً سماعون – بصيغة المبالغة – لقوم آخرين لم يأتوك، إنهم يستجيبون لأقوام آخرين من اليهود، لا يأتون مجلسك يا محمد. ويمكن أن يكون المعنى: يتسمعون الكلام منك، ويُنهونه إلى قوم آخرين. ممن لا يحضر عندك من أعدائك.

وأي مانع يمنع أن يصدر عن اليهودي – بوصفه عدواً ماكراً لرسول الله والمسلمين – كلا الأمرين الذميمين جميعاً !! ونأتي إلى تلك الحقيقة التي أصبحت سجية من سجاياهم، والتي رأينا الكلام عليها في عدد من سور القرآن الكريم، ألا وهو تحريفهم الكلم عن مواضعه، إذ جاء قوله تعالى هنا: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أجل يحرِّفون الكلم الذي في التوراة – كآية الرجم – من بعد مواضعه التي وضعه العليم الخبير – سبحانه – عليها يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه عن عمد وتقدير، من بعد ما عقلوه وهم يعلمون أن ما يفعلونه عدوان على الحقيقة وأنه ضلال وانحراف.. وقد يرفعون القضية إلى النبي ﷺ فإن حكم على هواهم، قبلوا حكمه، وإن حكم بغير ذلك، أعرضوا ولم يقبلوا. إنها الرغبة الجامحة في السير مع الباطل، ومظاهرته على الحق الصراح الذي لا شية فيه.

ولقد حملت إلينا كتب التفسير ودواوين السنة ومصادر السيرة النبوية المطهرة، نماذج عملية حاول فيها اليهود طمس نصوص في التوراة في شأن حكم من الأحكام، أو تحريف الكلم عن مواضعه التي وضعه الله عليها في كتابه، أو تبديل الكلام الذي جاء من عند الله بكلام من عند أنفسهم، يتفق مع ما يمليه الهوى ويوسوس به الشيطان. من ذلك ما ورد بشأن مجيء اليهود برجل وامرأة منهم قد زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بين أيديهم من الأمر برجم من أحصن، فحرَّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم، وهو جعل السواد في وجه الإنسان أو سكب ماء الحميم عليه، والإركاب على حمارين مقلوبين،

فلما وقعت تلك الحادثة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إليه – يعنون النبي ﷺ – فإن حكم بالجلد والتحميم، فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. وقد عقد البخاري في كتاب التفسير من جامعه الصحيح باباً عنوانه: «باب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾» وروى هناك بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –، أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا نُحَمِّمُهما ونضربهما، فقال: ألا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدْراسها الذي يدرِّسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد، قال: فرأيت صاحبها يَحْنى عليها يقيها الحجارة».

معنى «يَحْنى عليها»: يُكبُّ عليها. يقال: حنا يَحْنىٰ حُنُوًّا، قال في «النهاية»: ومنه حديث رجم اليهودي: «فرأيته يَحْنى عليها يقيها الحجارة».

وقد ورد حديث هذه الواقعة أيضاً في كتاب الحدود من جامعه الصحيح تحت «باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى

الإمام» فقال: حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال: حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدَون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فرجما، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة».

ولنا عودة - إن شاء الله - إلى هذا الموضع من الواقع يومذاك نتلمس فيه أبعاد هذه القضية من خلال النصوص الواردة فيها، لما أن هذا الذي صنعت يهود أنموذج عملي لمحاولتهم طمس معالم الحق، وتأويل كلام الله على هواهم ورغبتهم الجامحة في الانحياز إلى الباطل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يُرضون الجناة... بسخط الله تعالى

الذين يذعنون لهدي الكتاب والسنة، وينتفعون بما جاء في نصوصهما من حقائق - أخص منها ما ورد في شأن من ضربت عليهم الذلة والمسكنة - إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباؤوا بغضب من الله - الذين يوفقون لذلك، لا يهولهم ما يجدون اليوم من تعنت اليهود والنصارى، ومحاولتهم العدوان على الحق وطمس معالمه، وقلب الحقائق المتألقة كالشمس في وضح النهار، رأساً على عقب.. لا يهولهم ذلك، ولا يقع منهم موقع الاستغراب، لأنهم على ذكر من تنبيه القرآن على ذلك، وتأكيده في نصوص السنة ووقائع السيرة المطهرة، وما تلا ذلك في تاريخ تعاملهم مع الناس عموماً، ومع المسلمين على وجه الخصوص.

والعهد قريب بما وقفتنا عليه آي الكتاب العزيز من خلائقهم، التي منها عدوانهم على الحق أينما كان، ولو أدى ذلك إلى العبث حتى بكلام الله عز وجل، ناهيك عن سوء التعليل لما يصنعون، والتماس المعاذير الهابطة، حتى صار الأمر ضغثاً على إبَّالة. وفي العديد من المواطن في كتاب الله عز وجل، كانت الدلالة واضحة، على أن تلك الخلائق الجانحة عن الصراط السوي إلى نقيضه، وثيقة الصلة بالفكر والسلوك عند اليهود..

وغني عن البيان: أن مما يزيد الأمر وضوحاً، ويمنح المرء يقيناً على يقين بما تؤذن به آيات الكتاب الكريم، وتدل عليه أصح دلالة وأصدقها..

ما يجد الناظر في السنة المطهرة – وهي بيان الكتاب – من الوقائع التي لا يرتاب منصف في أنها تطبيق عملي من قبل اليهود، لما كشف عنه القرآن ودل المسلمين عليه.

ومن النماذج العملية التي وقعت على صعيد الاحتيال على نصوص التوراة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ما مر بنا من قبل مما روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ: فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فرجما، فرأيت الرجل يَحْنى على المرأة يقيها الحجارة».

فهذه الواقعة، صريحة في محاولتهم طمس ما جاء عن الحق جل جلاله وورد صريحاً في التوراة، وقد كشف مكرَهم عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – الذي كان من أحبارهم قبل الإسلام، وهو على علم بحقيقة ما في التوراة. وأنت واجد في بعض الروايات ما يدل على الباعث الذي حفزهم إلى العبث بدين الله، والتحول عما حكمت به شريعتهم إلى غيره، فقد روى مسلم بسنده عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – أنه قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً. فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً

من علمائهم. فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى: أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم؛ ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم». فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا...﴾ يقول: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلُّها.. محمَّماً: مسوَّد الوجه من الحُمَمة وهي الفحمة وجمعها حُمَمٌ.

فأنت ترى في هذا الحديث أن الرسول ﷺ أتى القضية من بابها الطبيعي، حين دعا رجلا من علماء اليهود، وسأله عن حقيقة الأمر في شأن العقوبة التي أوقعوها بذلك الرجل منهم، وكان عليه الصلاة والسلام على غاية الحكمة في سؤاله؛ إذ قال لذلك العالم: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم» وإذ ضُيّق

الخناق بهذه المناشدة على الرجل - وهو من علمائهم - صرّح بما ركبوا من متن الضلال، وأن العدول عن حكم الشرع، كان إرضاء لشرفائهم الذين كثرت فيهم تلك الجريمة النكراء، والعياذ بالله، فعملوا على إرضاء أولئك الجناة أصحاب المكانة فيهم بسخط الله تعالى: فكان أن بدؤوا بنوع من التمييز الطبقي، بحيث يقيمون الحد على الضعيف، ولا يقيمونه على الشريف، ثم انتقلوا خطوة أخرى، بأن بدّلوا الحكم واخترعوا من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله، تلكم هي قالة ذلك اليهودي الذي كان يعني ما يقول؛ لأنه ليس من آحاد الناس الجهلاء، ولكنه من الأحبار فيهم، إنه يعترف لرسول الله ﷺ اعترافاً يكشف عن ذلك العبث برمته. ها هو - عليه وعلى أمثاله لعائن الله - يقول: (ولكنه - يعني الزنى - كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد). ثم ماذا؟ لقد جاءت المرحلة التالية التي عبر عنها بقوله: (قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم).

هذا واحد من مواقفهم المخزية في النظرة إلى الإنسان، وفي مواجهة ما تأمرهم به التوراة وما تنهاهم عنه .. ولنذكر بعد هذا: أن ذوي الكلمة فيهم لا يفتؤون يرددون -وهم قوم بهت - أنهم مع أحكام الله لا يريمون عن التوراة، ويعملون جاهدين على أن يجمعوا يهود العالم على شعارات يأتي في مقدمتها الحقوق المزعومة، والدينُ الذي حرفوه وبدلوه وطمسوا معالم كتابه - تلك المعالم التي توجب عليهم لو كانوا على أثارة من

صدق أن يؤمنوا بالإسلام – ولكنهم آثروا الكذب والعدوان، واخترعوا ترَّهات باطلةً أسموها ديناً اشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون.

وكم يحسن المسلمون صنعاً إذا أخذوا من الأنموذج الذي عرضنا له وأمثاله، ما يساعد على التفسير الصحيح للتحرك الفكري والسلوكي عند اليهود، ونشروا ذلك باللغة المناسبة على كل صعيد ! إذن لأحسنوا إلى أنفسهم، وأضاؤوا الطريق للأجيال القادمة، وفي ذلك خير كثير.

﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

من أبجديات التحرك الفعال، في مواجهة يهود في العصر الحاضر، عدم التغافل أو الغفلة عن قضايا، تبدو من صميم مفهوماتهم وسلوكهم هي في حد ذاتها، على نسب واضح إلى ما كان يُشتكى منهم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ثم ما تلا ذلك من عصور، وكل يوم تزداد نسبة الحرص على الأذى، ويتعمق وجود تلك الخلائق التي كشفت عنها نصوص الكتاب والسنة، وأيدتها أوضح تأييد ما كانت تكسبه أيدي المغضوب عليهم من وقائع، حتى وصل الأمر إلى ما نعانيه منهم في هذا العصر... وقد زاد من فاعلية الأذى في سلوكهم، حالنا التي لا نغبط عليها.

وفيما حملت إلينا الرواية التي أخرجها الإمام مسلم في صحيحه، مؤشرات تؤكد ما نقول، وتوحي بضرورة اليقظة، وإدامة الربط، بين حاضر القوم وماضيهم، لكي تُفهم القضايا على وجهها الصحيح، ولا يُفَسَّرَ التاريخ «مزعةً» من هنا و «مزعةً» من هناك !! وبذلك تحصل العبرة أولاً، ويمكن تصنيف الوقائع والأخلاق، من حيث آثارها على صعيد التعامل ثانياً.

ولابد من الإشارة بادئ ذي بدء، إلى أن عرض الأمر في جريمة الزنىٰ المشار إليها في الحديث على النبي عليه الصلاة والسلام – وهم كافرون به وبشريعته، حملهم عليه – والله أعلم – اضطراراً، ما جاء في الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ تنظيماً لشؤون المجتمع المسلم ومن فيه، وكان من

ذلك موادعة يهود التي اشتملت على تحديد التعامل معهم، وحددت حقوقهم وواجباتهم تجاه المجتمع الجديد، وإن شئت قلت: الدولة الجديدة بحمد الله. وأن هذا أيضاً كان نوعاً من الهروب من حكم التوراة.

ومن الدروس التي لا بد من الاستضاءة بها في هذه الحقبة الزمنية التي نعيش مآسيها معهم: أن من أهون الأمور على الأحبار المسؤولين عن توجيههم، وتطبيق أحكام التوراة فيهم، العبث بتلك الأحكام تحريفاً وتبديلاً.. يفعلون ذلك مقابل عرض من الدنيا قليل، فما بالك اليوم؟؟.

ثم إن إخضاع أحكام التوراة، لظلام الطبقية في المجتمع، ظاهرة تدل- فيما تدل - على أن كل ما يقال عن صلة اليهود بالتوراة، ووصف التصرفات اليوم بأنها - على زعمهم - تصرفات توراتية يزينها التديُّن والحرص على أحكام السماء.. عبث من العبث واشتراء لآيات الله بثمن قليل.. فالحكم - حسبما جاءت الرواية الصحيحة - تحوّل عن أصله، ليكون في خدمة الأقوياء، الذين لم يكن بمقدور رجال الدين عندهم، فرضه عليهم.. وقد يكون عدم القدرة، زعماً باطلاً؛ لأن القرآن أوضح في قضية أخرى، تتعلق بأكل المال الحرام، أن الأحبار والربانيين، قَصّروا كل التقصير في تذكير الناس ونهيهم عن ارتكاب المحرّمات في القول والفعل. ذلكم ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى في كلام على بعض من فعال يهود وخلائقهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ

وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦١ – ٦٣].

وأكثر من هذا في موطن العبرة – وما أكثر العبر وأقل المعتبرين – أنهم لم يدعوا العبث، حتى عن تحكيم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فرأيت الدارس – القارئ فيهم – يحاول صرف الأنظار عن النص الذي يصرح برجم الزاني المحصن، بصرف النظر عن موقعه في المجتمع ومنزلته فيه.

كل هذه الأمور مجتمعة، مضافاً إليها الصمت من الجمهور عن المخالفة، دلّ على موطن العبرة فيها، ونبّه على عدم تقليدهم فيما هم فيه من مظاهرة الباطل على الحق: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

وهذا إعلان صريحٌ عن أن عمل هؤلاء الأدعياء، أدعياء أنهم من أهل الكتاب العاملين بأحكامه، دعوى قام الدليل على نقضها، فأين الإيمان من هذا الصنيع، عبثاً بأحكام التوراة، وسلوكاً غير أخلاقي في الحيدة عنها!! ناهيك عن سوء الأدب والكذب على رسول الله ﷺ، ولولا أنه – بحكمته – عليه الصلاة والسلام، استطاع محاصرة أحد أحبارهم؛ ومناشدته أن يقول الحقيقة، لظلّت المعالم ضائعة، والحكم المطلوب بيانه، لعبة في أيدي المتاجرين بالدين، يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويا بئس ما يصنعون ويشترون.

وفي كلمة شيخ المفسرين – رحمه الله – ما يزيد الأمر وضوحاً، ويضع الأيدي على مكمن الداء في نفوس هؤلاء القوم وقلوبهم وعقولهم، يقول – رحمه الله –: (يعني، تعالى ذكره، وكيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضون بك حكماً بينهم، وعندهم التوراة التي أنزلتُها على موسى التي يقرون أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلته على نبيي، وأن ما فيه من حكم فمن حكمي، يعلمون ذلك ولا يتناكرونه ولا يتدافعونه، ويعلمون أن حكمي فيها على الزاني المحصن: الرجم، وهم على علمهم بذلك يتولون؛ يقول: يتركون الحكم به بعد العلم بحكمي فيه، جراءةً عليَّ، وعصياناً لي) والآية – وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ فهي تحمل في طياتها – كما هو واضح – تقريع اليهود على ذلك التجاوز المهين لحكم الله بتعلّلات فاسدة، تزيد الأمر سوءاً، وعلى ذلك العبث العابث والإصرار على التلاعب – من قبل من يفترض أن يعلموا الشرعة ويطبقوها – بأمر يتعلق بالإيمان وبحكم الله عز وجل. وقد أفصح عن ذلك – رحمه الله – فبيّن أن ما جاء في الآية وإن كان من الله تعالى ذكره خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريع منه لليهود الذين نزلت فيهم هذه الآية: (يقول لهم تعالى ذكره: كيف تقرّون أيها اليهود بحكم نبيي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حكمي الذي تقرّون به أنه حق عليكم واجب، جاءكم به موسى من عند الله). والواقع أن العقل المتجرد عن الخضوع لتأثير الهوى، كان لابد أن يعمل عمله في هذه القضية؛ فإذا كان اليهود قد بلغ من جراءتهم على الله وكتابه، أن يتركوا حكمه الذي جاءهم به موسى الذي يقرون بنبوته،

فهم بترك حكمه تعالى الذي يخبرهم به محمد ﷺ أنه حكمه – جل شأنه – أحرى مع جحودهم نبوته ومناصبته العداء. على أنهم لو استمسكوا بما جاءهم به موسى، لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، لما أن التوراة تبشر بنبوته وتذكر عدداً من صفاته.

وهكذا كان التناقض، وكان على العقل السليم أن يحكم حكمه في هذا النهج الذي يسلكه اليهود، مع دعاواهم العريضة ومزاعمهم التي لاتكاد تنتهي. قال أبو جعفر: (يقول: فإذا كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرون بنبوته في كتابي، فأنتم بترك حكمي الذي يخبركم به نبيي محمد أنه حكمي أحرى مع جحودكم نبوته). وانظر إلى ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أين فعل هؤلاء المتولين عن حكم الله من فعل أهل الإيمان؟ إن دعواهم بجانب، وعملهم بجانب آخر، يعكس الكذب المهين، من أجل هذا كانوا جديرين بهذا الحكم ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. فقد قال جل شأنه مخبراً عن حال هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم بقوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الآية وحال نظرائهم من الجائرين على حكمه، الزائلين عن محجة الحق قال سبحانه «وما أولئك بالمؤمنين» يقول: ليس من فَعَل هذا الفعل، أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده، ونبوة نبيه ﷺ؛ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان.

وهكذا تراهم يدَّعون الدعوى، ويقوم سلوكهم دليلاً على التناقض والكذب فيما يدعون!!

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بـيّـنـاتٍ أصحابُـهـا أدعـيـاءُ

رزقنا الله حسن الوقوف عند حدوده كما أمر، والاعتبار بصنع هؤلاء المغضوب عليه، الذين لم يدعوا باباً من العبث وتجاوز حدود الله إلا ولجوه، وألهم المسلمين أن يفيدوا من تلك الحقائق التي لا تقبل الاحتمال، وأن يوظفوها على ساحة الصراع مع من واتتهم الفُرص وخلا لهم الجو، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تحريف الكلم عن مواضعه...

ودعوى الإيمان

استنطاق الوقائع التي تفشت آثارها في مجتمع يهود – كما دلت على ذلك النصوص –: أكَّد بما لا يقبل الشك، ما دلت عليه الكلمات الهاديات من تهاونهم في شأن وحي السماء، حتى بلغ الأمر مبلغ أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، وأن يطمسوا حقائق منصوصاً عليها في التوراة، وليس ذلك فحسب: بل صحبَ التهاونَ مجاهرتُهم بأن ما يُفعل على هذه الشاكلة لا ينأى بصاحبه عن الدين، مادامت المصلحة المزعومة تقتضي ذلك.

والذي لا مندوحة للمسلمين من تصنيفه – على أنه محطة من محطات تاريخنا، في إدراك الكيفية التي يمكن أن يتعامل بها اليهود مع الآخرين – ما جاءت به الروايات التي أوردناها، في شأن عبثهم بقضية الحكم على الزاني المحصن وبخاصة رواية الإمام مسلم –رحمه الله – . . إذ كانت محاولة التعفية على نص التوراة – كما رأينا – أسلوباً اتبعوه مع الرسول ﷺ دونما خجل أو تحسُّب،ولعل ذلك من أجل أنهم قد صدّقوا دعواهم الكاذبة المفتراة، بأنهم والنصارى أبناء الله وأحباؤه، فلا عليهم أن يكون منهم العبث والأسلوب البارد المستنكر، حتى في التعامل مع رسول الله ﷺ الذي أحسن إليهم – وهو في موطن القوة وقيادة المجتمع –

وضمن لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا أهل التحريف والتبديل، والفساد والإفساد.

وحري بالمسلمين اليوم، أن لا يُنسيَهُم هذه المحطة البارزة في التاريخ، وهي من الثوابت التي لا تقبل النسخ – ما آل إليه الأمر نتيجة ضعف نعانيه، ومظاهرة قوى الشر لأعداء الله وأعداء الإنسان.. ولا يكون ذلك إلا بالعودة الصادقة إلى الاستمساك بتلكم الحقائق، التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة دلالة قطعية لا تقبل الاحتمال وأيدتها الوقائع عبر تاريخنا الطويل مع قتلة الأنبياء والعابثين، حتى بكلام الله عز وجل.

ومن الإعجاز البياني لتلك القضية من أطرافها في القرآن الكريم، ما أنزل الله في أعقاب ما حصل منهم في الواقعة المومئ إليها من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] يقول: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا.

ومعاودة النظر في النص بكامله تنير الطريق أكثر فأكثر لمزيد من تبين الملامح والمنطلقات كما هي عندهم، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

وفي كشف عن بعض من الخلال الذميمة الأخرى، التي تشكل الإطار العام لفكر اليهود وسلوكهم على هذه الساحة: جاء بعد ذلك قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢] ثم بين الله جل شأنه أنهم لو كانوا صادقين لأخذوا ما في التوراة – وهو حكم الله – بصدق وإيمان ولكنهم يحتكمون إليك عسى أن يجدوا عندك – على زعمهم ما يعفيهم مما جاء في التوراة؟ ذلكم قوله تعالى في الآية التي تلي، وهي الآية الثالثة والأربعون: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

[المائدة: ٤٣].

وأنت ترى أن في الآية تأنيباً لليهود على التناقض الذي يقعون فيه، فقد تركوا حكم الله الوارد في التوراة، وجاؤوا إلى الرسول ﷺ يحتكمون إليه وهم كافرون به وبما جاء به.. أجل: كيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضون بك حكماً في واقعة وقعت في مجتمعهم، وعندهم التوراة التي أنزلتها على موسى التي يقرّون بأنها حق، ويزعمون أنهم بها مؤمنون ولأحكامها متبعون، إذ إنها الكتاب الذي أنزلته على نبيهم موسى. وهم في الوقت نفسه غير مؤمنين بأنك نبي مرسل من عند الله عز وجل، مع أن الدليل على ذلك قائم عندهم في التوراة؟!

إنه التناقض المخزي، الذي يدل على أن ما لجؤوا إليه من تحكيم الرسول ﷺ في أمر الحكم على ذلك الزاني المحصن، وهم غير مصدقين به ولا

مؤمنين برسالته لا يقصد منه اتباع الحق، ولكن محاولة التفلت من حكم التوراة – إن أمكن ذلك – وإن كان للوثيقة التي أومأنا إليها من قبل، بعض الأثر في حملهم على ما صنعوا من تحكيمه عليه الصلاة والسلام، ودل على الرغبة في التفلت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم ختمت الآية بنفي الإيمان عنهم، بسبب من طمس الحقيقة والتولي عن حكم الله وعدم الانصياع إليه، مضموماً إلى ذلك أمور وأمور من الضلالات والأباطيل . . وليس ذلك من الإيمان في شيء، بل هو من نواقضه المفضوحة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

[الأنعام: ٣٣].